

الترجمة بين تكريس الغرابة وفائض التأويل

د. براهيم أحمد

جامعة مستغانم- الجزائر

Abstract:

It is well known that translation is a multidisciplinary issue that has been studied by linguists, philosophers and many other scholars. However, we can say that the issue of translation today is indisputably the issue of philosophy, not in the sense that philosophers negate the right to study translation by the others, but because their attempt to re-read the cultural legacy in order to overcome it, as well as that the most important question of philosophy since Plato is the problem of models and reproduction of knowledge in many languages.

Key words: Linguistics, language, translation, knowledge, truth, culture.

المولج:

معروف أن الترجمة مسألة متعددة الجوانب وقد طرقها ويطرقها الأدباء واللسانيون إلى جانب الفلاسفة، إلا أننا نستطيع أن نقول إن قضية الترجمة اليوم هي بلا منازع، قضية الفلسفة، لا بمعنى أن الفلسفة تنزع الحق من غيرها في الاهتمام بها وإنما بمعنى أن الترجمة أصبحت اليوم هي أم الفكر في محاولته لإعادة قراءة تراثه وتجاوزه، هذا فضلا على أن مسألة الفلسفة الكبرى، ومنذ أفلاطون هي مسألة النموذج والاستنساخ.

مقابل البناء، تحاول الفلسفة اليوم فك البناء مقابل بناء البرج وبناء اللغة الواحدة والمعنى الواحد والهوية الواحدة، تضع الفلسفة اليوم التفكيك وفك البناء والبلبلية والترجمة والاختلاف والتعدد... فليس من الغرابة إذن أن تتحد إستراتيجية التفكيك بإستراتيجية الترجمة، وأن تصبح الترجمة قضية الفلسفة، ويغدو الفكر تحويلا للميتافيزيقيا وترجمة لها.

فهل الترجمة عملية ممكنة ؟ تجيب الميتافيزيقيا بالإيجاب من أفلاطون إلى هيغل مروراً بـ لايبنتز، فما دام المهم في الكتابة هو المعنى، المعنى السابق على الكتابة واللغة فبإمكان هذا أن ينتقل من لغة إلى أخرى، من دال إلى آخر، والترجمة كنقل لمحتوى دلالي، من شكل في الدلالة إلى أخرى، عملية ممكنة.

تفترض هذه المهمة عالماً نموذجياً هو عالم الأصول، مثلما تفترض الترجمة بهذا المفهوم نصاً

أصليا تريد أن تكون نسخة عنه، شبيهة به، أمينة في نقله، نسخة أيقونة ولا بد والحالة هذه هنا أن يستشعر المترجم صعوبات تعترضه مثلما استشعر أفلاطون: "صعوبات الفيلسوف" وغالبا ما يجزم في النهاية بأن "كل ترجمة خيانة".

أليست اللغة هي التي تفكر بنا؟ أليست هي التي تتكلم؟ فالإنسان كما يقول هيدجر، لا يتكلم إلا استجابة للغة عندما يصغي إلى ما تقوله، وينصت إليها، "فاللغة ليست في ماهيتها، وسيلة يفصح بها الكائن العضوي عن نفسه، ولا هي تعبير عن الكائن الحي، وليس في إمكاننا أن ندرك ماهيتها إذا اقتصرنا على النظر إليها كمجموعة من الدلائل أو وقفنا عند قيمتها الدلالية، إن اللغة هي الكيفية التي يكشف فيها الوجود عن ذاته، ويحببها في الوقت ذاته"،¹ اللغة "مأوى حقيقة الوجود" بالإضافة إلى ذلك ألا تنطوي اللغة على نوع من النفوذ؟ إنها كما يقول رولان بارت، مميزا بين اللغة واللسان "سلطة تشريعية، اللسان قانونها"،² فهي تصنيف ينطوي على نوع من القهر، إنها "حكم فاشي"،³ ألا تصبح الكتابة والحالة هذه لغة ضد اللغة؟ أليست الكتابة كما يقول بارت أيضا "خيانة للغة؟"⁴ أليست غشا وخداعا؟ أليست إقحاما للغرابة فيما ألفناه في اللغة؟ أليست زحزحة للغة وفي اللغة؟ إذا كان الأمر كذلك، فلن تعود اللغة مجرد تعبير وأداة لتبليغ المعاني، وإنما ممارسة دالة تدخل ضمن مجرى التفاعل الاجتماعي للممارسات الاجتماعية، ولن يعود النص والحالة هذه حاملا حقيقة للحقيقة، ولكنه لن يكف مع ذلك أن يكون مدار الصراع حولها.

على هذا النحو تغدو الإشكالية التي نود معالجتها هنا هي: كيف ينبغي أن تفهم الترجمة وتمارس كي تكون أداة تحديث وانفصال؟ كيف تغدو الترجمة أداة للمساهمة في حركة الخلخلة والتحويل اللذين تعرفهما ثقافتنا في عالم تتفاعل فيه الثقافات بشكل لم يتقدمه مثيل؟ كيف تكون الترجمة أداة لانفصال الثقافة عن نفسها وانفتاحها على ثقافات مغايرة؟ لانفصال اللغة عن ذاتها وانفتاحها على التعدد لتحويل الهوية وفتحها على الخارج؟ مجمل القول: كيف تكون الترجمة أداة لتكريس الغرابة؟

فضلا عن ذلك هل تنتظر اللغة عمل الترجمة بل فعل الكتابة لكي تتعدد؟ ألا تنطوي كل منظومة لغوية في ذاتها على تعدد؟ فكلنا نعيش لغات في اللغة. ثم إن النصوص المعاصرة في معظمها تكتب اليوم بأكثر من لغة، إنها تورد عدة ألفاظ بل تقتبس نصوصا متنوعة تنقلها من لغات متباينة، بهذا المعنى فكل نص "أصلي" ينطوي على ترجمة بل ترجمات ويضم الآخر في حضنه، ويُقجم الاختلاف في هويته، بل هناك نصوص تكون في غالب الأحيان من اللغة نفسها ليست حاضرة في النص ولكنها مرتبطة به، كل نص ينطوي صراحة أو ضمنا على نصوص مخالفة، كل نص، حتى وإن ظل واحدا فهو تعدد، حتى إن ظل هوية فهو اختلاف، حتى إن ظل غير مترجم فهو ترجمة.

فالترجمة هي التي تنفخ الحياة في النصوص وتنقلها من ثقافة إلى أخرى، والنص لا يحيا إلا لأنه قابل للترجمة وغير قابل للترجمة في الوقت ذاته، فإذا كان في الإمكان ترجمة نص ما ترجمة نهائية،

فإنه يموت، يموت كنص وكتابة.

الترجمة (Traduction) إذا اعتبرناها شكلا من أشكال العملية التأويلية الأساسية المرتبطة بالفهم (Compréhension)، فإننا نستطيع من خلالها إدراك نواتنا. وتحديد رؤانا للعالم من حولنا، إذ الترجمة عبور من لغة إلى أخرى، وهي كفعل لغوي تدخل ضمن ما يسميه «غادامير» (GADAMER) عملية التواصل والحوار بين اللغات وهي من ثم تجربة إبستمولوجية وأنطولوجية، ويرتبط هذا الفعل اللغوي حسب غادامير بثلاثة أبعاد: بعد الفهم، وبعد الفكر، وبعد التأويل، لتصبح الترجمة والأمر كذلك عبورا فكريا من لغة إلى أخرى وحوارا ثقافيا بواسطة الفهم والتأويل، أو قل نصل عبرها، والقول لـ غادامير، على تحقيق أدبيات «الحوار الهرمينوطيقي»⁵.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق هو أن الهرمينوطيقا (Herméneutique) في شكلها الحالي بوصفها أقدم اتجاه في التأويل اقترن ظهورها بتفسير النصوص المقدسة والاتجاهات الفلسفية، عرفت تطورا منهجيا في القرن التاسع عشر قامت على أساسه، فيما بعد، معظم الجهود في علوم الفكر sciences de l'esprit بل إنها، يضيف غادامير، تجاوزت مهمتها الأصلية وانزاحت عن طابعها البراغماتي بوصفه غايتها الأساسية، والتي تتمثل، بالدرجة الأولى في تسهيل فهم النصوص الأدبية، والفن عموما بما في ذلك الإبداعات الروحية التي كان الاهتمام عليها منصبا في الماضي، كالقانون والدين والفلسفة، فقد أضحى كل ذلك في ظل التحولات الجديدة غريبا عن معناه الأصلي هناك في أرض النشأة عند الإغريق، حيث ارتبط بحس الاكتشاف ودور الوساطة التي تجسدت كفعل تأويلي عندهم من خلال «هرمس» HERMÈS رسول الآلهة إلى البشر.⁶

إذا ارتبط مفهوم الهرمينوطيقا في التراث الإغريقي بدور الوسيط المترجم أو المؤول أو المفسر L'interprète ممثلا في «هرمس» لكن الذي تخفيه الميثافيزيقيا الغربية من خلال هذه الأسطورة هو أن مهمة الترجمة أو الوساطة التي يقوم بها هرمس إنما هدفها، ليس إقرار التواصل والحوار بين عالم الآلهة وعالم البشر أو إثبات الاختلاف والتعدد على مستوى الألسن، بل الوصول إلى اللغة الأصل/الحق/الخالصة، تلك الكامنة في أعماق كل إنسان السابقة لكل شيء، حتى لوجود المتكلم بها. ففي البدء كانت الكلمة كما هو معروف عندهم في القول الديني للمسيحية، وهذه الأفضلية للكلمة جعلها تحتل مركزية في الفكر الغربي بوصفها أصل الوجود، بل إن لها حضورا وأسبقية على الكتابة، من حيث هي ثبت لها كما تقرأه الميثافيزيقا، لتجد الترجمة حينذاك نفسها واقعة في شراك الإيديولوجية/الفكرانية.

بل إن هذا التعدد في الألسن يخفي وراءه خصوصية كل لغة على حجب ما لا تشاء أن يطلع عليه اللسان الآخر، لتأتي الترجمة وقتئذ كفعل لغوي ووسيط بين هذه الألسن في محاولة لتهديب الفروق وتذليل المحجوب وتقريب البعيد، فالترجمة إذن ليست مجرد عملية لغوية، إنها تستدعي الفكر وتستقر الوجود، كما يستدعي التنقل من لغة إلى لغة ثانية، لغة ثالثة بإمكانها أن تقيم توازنا

إيتيقيا بين اللغتين/الوجوديين.⁷

هكذا تتجاوز الترجمة بصنيعها هذا مجرد كونها ترجمة للنصوص، سواء أكانت دينية مسيحية أم غير دينية من النصوص البشرية، إلى تصور جديد أنزلت فيه منزلة «الوسيط» (Médium) كما هو الحال مع «هرمس» إذ كان دوره كوسيط/رسول، كما هو شأن النبي في المجال الديني، أن يبلغ تعاليم الآلهة تبليغا أميناً لا تبديل فيه ولا تحريف حتى تصل الرسالة كاملة الحقيقة إلى المبلغ لهم. ولما كان هنا هدي مترجم الإنجيل، فإنه ينصب نفسه وسيطاً/مترجماً بين المتكلم الإلهي والمكلف الإنساني، وهو موقف الميتافيزيقا الغربية من الترجمة، إذ ننظر إلى اللغة الأصلية نظرة تقديس، الأمر الذي «يفترض أفضليتها على لغة النقل، مما يسمي الترجمة بالدونية، ويرسخ في ذهنية المتلقي هذه الدونية، ومن هنا نشأت المفاهيم الخاطئة العديدة عن الترجمة: منها أن الترجمة ليست عملية إبداعية مهما بذل فيها من إتقان وفنون، ومنها وصفها بالزوال مقابل بقاء الأصل، واعتبار المترجم أقل منزلة من المؤلف، وغير ذلك من الاعتقادات التي تفقد ثقة المتلقي بالترجمة والمترجمين.⁸

إذا فالميتافيزيقا الغربية أقامت أسس المعرفة في العقل الغربي على مفهوم الأصل المتعالي، مما جعلها تنظر إلى كل تحويل أو نقل له، بفعل الترجمة، على أنه خيانة، وكلما ابتعد عن النسخة الأصلية، من خلال أكثر من وسيط، تتضاعف الخيانة، وينتشر الزائف/الشائ/المتحول، وبدل الحديث عن الميتافيزيقا كترجمة تنهض على وحدة الأصل ومطابقته وهويته، يكون الكلام عن ميتافيزيقا الترجمة، حيث تتجاوز الأصل/المركز/الجوهر/الأول إلى ما هو طارئ/حادث/كتابة ثانية/نصوص متباينة/ثقافات متعددة، وهو ما تجسد حقيقة مع إستراتيجية التفكيك في نسختها البارتيّة.

إذ يرى رولان بارت (Roland BARTHES) بأن كل نص يمكنه كتابة بأكثر من لغة، فتكون الترجمة، حينذاك كتابة ثانية للنص، أو يقوم خطاب فوق خطاب فتأويل نص، وفق هذا المعطي، ليس معناه إعطاء معنى له، بقدر ما هو إعادة كتابته، بفعل القراءة/الكتابة، نصوصاً متعددة، فهو أي النص مفرد بصيغة الجمع، لذا فكل نص يعتبر بمعنى، فالترجمة/تأويلا/كتابة ثانية.⁹ ومادامت الترجمة حواراً عبر اللغة بين الثقافات والشعوب كما مع غادامير، فإنها تسهم، لا محالة، في خلق «حوار هيرمينوطيقي» (Dialogue herméneutique) يعمل على تحقيق تفاهم (Entente) ويكون أداة في خدمة هذا التفاهم/الوفاق بين النص/المنطلق والنص/الوصول، وليس معنى ذلك البحث عن المعنى عبر «الفهم التاريخي» الذي يكون بمثابة إعادة تشكيل مطابق لتاريخ النص، وإنما الأمر خلاف ذلك، فالفهم هو فهم النص في ذاته أو بالأحرى يرتبط بالأفكار الخاصة للمؤول، التي تسهم دائماً ومنذ البدء في إعادة بعث المعنى في النص بالإضافة إلى ذلك يكون الأفق الذاتي للمؤول حاسماً.¹⁰

هذا ما يؤسس لحقيقة مفادها أن التأويل ليس مجرد عملية إعادة إنتاج أو تكرار بسيطة للنص المحول، بقدر ما هو خلق جديد للفهم،¹¹ فيتجاوز الترجمة، والأمر كذلك، مجرد كونها عملية نقل من لغة إلى لغة إلى كونها تأسيس لانتولوجيا فهم الكائن في التاريخ، فلا يتوقف الحديث عن اللغة

كحقيقة وجودية أو بيت الوجود الذي يسكن فيه الكائن كما يقول هيدجر، فتتحقق عبارة «الإنسان كائن يتكلم» بل تنضاف إليه عبارة «الإنسان كائن يسعى دوماً إلى أن يفهم العالم».¹²

و من هنا تصبح الترجمة تجربة في الفهم وتطبيقاً لفاعليته في الحياة، وتحويله من لغة إلى الأخرى ومن نص إلى الآخر، ثمة فقط نتجاوز فهم الميتافيزيقا، التي تلج على الوفاء للأصل في الفعل الترجمي إلى مرحلة جديدة تصح فيها الترجمة حواراً حضارياً ومنهجاً يتجاوز الفهم إلى فهم الفهم، هذا ما جعل غادامير، في الحقيقة يؤكد على أن قيمة الترجمة تكمن في نقل المفاهيم والأفكار وتحويلها من الماضي أو من الثقافات الأخرى عبر فعل التوصل إلى الحاضر.

وبدل أن يبقى المترجم حبيس سلطة النموذج، نموذج كاتب النص الأصلي، يتحول إلى كاتب/ مبدع جديد للنص، هذا الأخير يتعدد بدوره، عبر فعل القراءة/التأويل إلى مجموعة نصوص لا متناهية، تخرج من كونها إبداعاً أو إنتاجاً مكتوباً إلى ما هو منتج ثقافي/حضاري فيتماهي النص/الإبداعي في الثقافي/الحضاري، ويصبح الفهم فهماً من نص منطلق هو المكتوب إلى نص وصول هو الثقافي/الحضاري بوصفه نسقاً خفياً تنوب اللغة القول عنه، لا كوسيلة تعبير أو إبلاغ بل بوصفها الوجود والتجلي لهذا النسق والإنسان أيضاً.

فالإنسان لا يتكلم اللغة، وإنما هي من يتكلم عبره، والحقيقة ليس فيما يقول، بل فيما تقول هي، فهي بالإضافة إلى كونها وطن الكينونة مع هيدجر، فهي كذلك ما يجب فهمه من خلال إعادة قراءتها وتأويلها عند غادامير، فتغدوا الترجمة والحال هذه كتابة ثانية للنص، لأي قراءة وتأويل، مادام أن القراءة بوصفها فعالية تنتج المكتوب وبفعل القراءة تتعدد نصوصاً، وتتجدد ولادة القراءة في كتابات لا تنتهي عدداً، فالتحويل إذا يقتضي التغير، ليكون دور عملية الترجمة هو تسويق وتحويل النصوص من منطق لغوي إلى الآخر، يستدعي التغير والإضافة مع مراعاة منطق اللغة المنقول عنها، فنشهد حينئذ ميلاد نص جديد يتجاوز صفة الجمالي/الإبداعي إلى صفة الحضاري/الثقافي/التواصلي التداولي/الجامع.¹³

وهو المنطق أي التحويل الذي ترفضه الميتافيزيقا الغربية في نسختها العقلانية، حيث تعتقد أن ترجمة النصوص أو نقلها بفعل التحويل إلى حضارة أخرى تشويه للأصل وإجهاز عليه، إذ الترجمة بالنسبة لها لا تبلغ مداها إلا بتحقيق مبدأ المطابقة والمماثلة بين لغة النص الأصل ولغة المترجم لها، لأن مآرب الميتافيزيقا هو الوصول، عبر الترجمة إلى حقيقة النص الأصلي على اعتبار أن الحقيقة/المعاني واحدة غير متعددة وأن النص الأصلي من القداسة بحيث يغدو معه النقل الحرفي والأمين، شرطاً أساسياً لكل عملية ترجمة أو تحويل، لتتحول عملية الترجمة وقتئذ إلى وسيط أمين بين الأصل والنسخة المشابهة/المغمورة كنص ثانٍ/اكتسبت صفة الشرعية وغدت من ثم النص/الأصل/المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه ولا يملك المترجم إذ ذاك، إلا الأمانة والوفاء والأصل وكأنه آلة جامدة لا تعي ولا تعقل ولا حقوق لها في الإضافة، وتصبح اللغة، وإن تعددت، واحدة

والثقافات وإن تباينت ثقافة واحدة، والحضارات وإن اختلفت حضارة واحدة¹⁴.

إن تاريخ الفلسفة هو في العمق تاريخ الترجمة، وقد تكتسي الترجمة مظهر الشرح والتعليق كما هو الشأن عند ابن رشد. أن تدرس أرسطو معناه أن تشرحه، أن تحوله من لغة إلى لغة، من خطاب إلى خطاب، وهذا التحويل هو ما يوفر للفلسفة حيويتها ونشاطها، «فالترجمة هي التي تنفخ الحياة في النصوص وتنقلها من ثقافة إلى أخرى. والنص لا يحيا إلا لأنه قابل للترجمة، وغير قابل للترجمة في الوقت ذاته»¹⁵.

وليست مسؤولية التحويل الذي يتعرض لها النص ملقاة على المترجم وحده، بل إن اللغة تتحمل القسط الأوفر منها، فاللغة التي يترجم إليها النص لها طقوسها وشروطها الخاصة، بحيث أنها تقحم في النص مسائل وقضايا لا تكون واردة في شكلها الأصلي، وإذا بالمترجم مرغم على نقل ما لا يكون راغبا في نقله. وأحيانا ترفض اللغة أي تعالي معه وتتسلق بعجزه وشلل حركته، فمن يستطيع مثلا أن يترجم إلى الفرنسية، «أما بعد» «وليت شعري» بل من يستطيع أن يترجم «أما بعد» إلى العربية بالذات. ذلك أن مسألة الترجمة واردة حتى داخل اللغة نفسها، فهل هناك وحدة حتى في لغة ما بعينها؟، كلنا نعيش لغات في اللغة». فمن خلال الترجمة نعيد النظر في قضايا فلسفية جوهرية كالهوية والاختلاف، الأصل والنسخة، الوحدة والتعدد، الأنا والآخر....

إن مهمة المترجم هي أن يسمح للنص بأن يبقى ويدوم، «وفي هذا البقاء الذي لا يستحق هذا إلا الاسم إن لم يكن تحولا وتجديدا يتحول النص الأصلي»¹⁶ أي أنه ينمو ويتكاثر فترجمات نص هي ما يشكل «تاريخه»¹⁷ ولكنه تاريخ ينطوي على صراع واختلاف.

جل المسائل التي تطرح عادة بصدد الترجمة تطرح بغية قهر الاختلاف، هذا في حين أنه لولا الاختلاف لما كانت الترجمة ضرورية ولا ممكنة، الاختلاف اللغوي أولا، إذ أن الترجمة كما يقول جاك دريدا وفي الحدود التي تظهر فيها ممكنة، «لابد وأن تكرر الاختلاف بين الدال والممدلول، ولكن بما أن هذا الاختلاف لا يكون أبدا اختلافا خالصا، فالترجمة لن تكون كذلك». لذا، فعوضا عن مفهوم الترجمة يقترح جاك دريدا مفهوم التحويل (Transformation) «تحويل لغة لأخرى، ونص لآخر»¹⁸.

إن ماهية الترجمة كعملية تحويل تمثل حق داخل اللغة الواحدة نفسها، لذا يؤكد مارتن هيدجر «أنه إن كانت عملية الترجمة تلاقى ما بين لغتين، وتجعلهما تدخلان في حوار بينهما، فإن ذلك لا يشكل العنصر الجوهرى للترجمة»¹⁹. فغالبا ما يحدث أن «الكلام نفسه إذا نُطق به وكتب داخل اللغة الأم، يكون في حاجة إلى تأويل، وبالتالي فإن هناك بالضرورة ترجمة، وذلك داخل اللغة الأم ذاتها»²⁰ ولعل هذا ما يبرر وجود قواميس لا تنقل لغة إلى أخرى وإنما تترجم اللغة ذاتها، ما يشكل جوهر الترجمة، إذن ليس كونها حركة بين اللغات، وإنما كونها تأويلا «فالتأويل والترجمة

هما في جوهرهما الشيء نفسه»²¹ والظاهر أن اللفظ الفرنسي (Traduction) وكذا مقابله الإيطالي استحدثت عند بداية القرن الرابع عشر ليحل محل لفظي (Interprétation) و (Translation) (وليعيد المجد للفظ الإغريقي (Hermenia) فالترجمة كما يؤكد لنا هيدجر مرة أخرى، هي العملية الفكرية التي تمثّل عن طريقها أمام (Nous Traduire) فكر الآخر ولغته، كما يمثل المتهم أمام المحكمة يقول: «إننا نحاول أن نترجم كلام أنكسمندر، يتطلب هذا ما جاء في اللغة اليونانية، ومن أجل هذه الغاية، فمن الضروري أن يمثل فكرنا قبل كل ترجمة، أمام ما قيل باليونانية»²² وما لم يقله ما فكر فيه وما ظل طي النسيان، المفكر فيه واللامفكر فيه، ولكن هل هذا اللامفكر فيه، هذا المنسي هو روح النص الذي تتحدث عنه الميتافيزيقيا؟ هل هو معناه الخفي، معناه الأصلي وحقيقته؟ وإن لم يكن كذلك، فما هو المنسي الذي يختفي وراء الانكشاف؟ يجيب هيدجر: «لا شيء غير الاختفاء ذاته»²³

لنتذكر ما قاله كارل ماركس (KARL MARX) عن ترجمة جوزيف روي (JOSEPH ROY) لكتاب الرأسمال إلى الفرنسية من أن تلك الترجمة وإن لم تكن «نسخة مطابقة» للنص الألماني، فهي تناسب الفكر الفرنسي وقت ظهورها، معنى ذلك أنها لن تلائمه في وقت آخر، وهذا بالضبط ما تعرفه اليوم وما دعا إلى إعادة النظر حتى في تلك الترجمة التي أمن عليها المؤلف نفسه، وما دعا القراءات «الجديدة» تصاحب بترجمات جديدة كثيرة.

إن العبارات التي تربط الترجمة بالوفاء والخيانة كثيرة، ولعل أشهرها تلك التي تقول أن «كل ترجمة خيانة»، إذ تفترض الترجمة بهذا المفهوم وجود نص أصلي يحمل معنى واحد ويحصره، كما تسلم بأن هذا النص كتب من أجل حفظ المعنى وصيانتته وتبليغه. هذا المعنى الذي حمله إياه كاتبه بعد أن دار بخلده وجال بفكره، فهو نص موقع يحمل اسم الكاتب، نص له هوية ينبغي ألا تضع في عملية الترجمة، نص له حرمانه وتنبغي معاملته بنزاهة علمية، لذا فإن المترجم يحس هنا بمسؤولية أخلاقية، ويشعر بأن عليه ديناً، وأن في عنقه أمانة. إنه يحس بأن عليه أن يكتب النص باسم كاتبه، أن يكتبه للمرة الثانية، أن يكتبه من دون أن يكتبه، أن يتدخل دون أن يتدخل، وأن يظهر ليختفي. فضلا عن ذلك فإن تلك العبارات تنطلق من الافتراض بأن اللفظ يحصر المعنى ويحدّه ويحدّده، وأن النص وحيد الدلالة أحادي التأويل، فماذا لو تبيننا النظرية السيميولوجية المعاصرة التي ترى أن في اللفظ فائضا في المعنى، وأن النص ما أن يكتب حتى يدخل في دوامة التأويل اللامتناهية، حينئذ هل يبقى للترجمة، كنسخة تطابق الأصل وتنقله وتستنسخه، هل يبقى لها من معنى؟ فأي أمل هذا الذي ستأخذ به عملية الترجمة؟ إنها لا بد وإن تنتقي نسخة ما عن الأصل لترجمه. وحينئذ ستغدو الترجمة نسخة عن نسخة، وتأويلا لتأويل، تأويلاً من الدرجة الثاني إن صح التعبير.

إن الترجمة لا تكون نسخة عن أصل، وإنما نسخة عن نسخة لأن النص الأصلي ليس أحادي التأويل ولأنه ينطوي على فائض في المعنى، الترجمة نسخ وإلغاء واستمرار، إنها نقل للنصوص

وتحويل لها، وهي تحويل للغتين معا: اللغة المترجمة واللغة المترجمة.²⁴

في محاولة لإعطاء صورة مشخصة عن الترجمة والعمل الذي تقوم به، يدعونا البعض إلى أن نتصور مجموعة من الأفراد يجلسون جنبا إلى جنب في شكل دائرة، بحيث لا يعرف كل واحد منهم إلا لغة الذين بجانبه، فإذا صدرت عن أولهم عبارة معينة، فإن الثاني سترجمها إلى الذي بجانبه لينقلها هذا إلى الآخر، وهكذا حتى تكتمل الحلقة، يرى هؤلاء أن العبارة الأصلية ستعود إلى نقطة انطلاقها «بعد الدورة» مقلوبة ممسوخة، وأنه كلما اتسعت الحلقة وكثرت اللغات وتعدد الأفراد ازداد مسخ العبارة وبعدها عن معناها الأصلي.

لا مفر للترجمة إذن أن تتم بين لغات تربط بينها علائق قوة، هذه العلائق قد تستمر في بعض الأحيان لتدخل في عراك مع اللغة الأجنبية لقهرها واستبعاد كل ما في النصوص يتنطع ويمتنع عن الرضوخ، هنا لا تكون الترجمة استشكالية. إنها لا تنهزم أمام النص ولا تحاول أن تقف عندما تتعذر ترجمته (l'intraduisible)، عندما يمكن أن يشهد على غرابة وبعد ومسافة و«غيرية»، وبالتالي على امتناع عن الوضوح والانصياع. لا تكون الترجمة هنا استراتيجية لتوليد الفوارق تفتح اللغة على «خارج» ها وتفتح «الغريب» بما هو غريب، على فضاء اللغة المترجمة، ذلك أن هذا الانفتاح رهين بالاعتراف بالآخر كآخر، والوقوف عندما تتعذر ترجمته كما يؤكد يوهان فولفانغ غوته في إحدى رسائله عندما يكتب: «لا ينبغي أن نخوض في عراك مباشر مع اللغة الأجنبية، ينبغي أن نتوصل إلى ما لا يقبل فيها الترجمة وأن نبدي شيئا من الاحترام إزاءه إذ في هذا تكمن قيمة كل لغة، ويتجلى طابعها الخاص».²⁵

هذا الوقوف عند «ما تتعذر ترجمته» يتنافى بطبيعة الحال مع اتلاف الوصول، إنه على العكس من ذلك اعتراف ضمني بالحاجة الدائمة إلى الأصول والرجوع إليها والاستئناس بها، إنه تأكيد بأن الترجمة إبداع متواصل وأنها لا يمكن أن تكون الآخر ذاته (le même de l'autre). وأنها ليست هي النص الذي كان سيكتبه المؤلف لو أنه تكلم لغة المترجم، وأن المسافة بين الذات والآخر لا يمكن أن تلغي إلغاء تاما، وأن النص المترجم ما يفتأ يعلق بترجمته، وأن كل ترجمة تظل شفافة لا تستبعد النص المترجم ولا تصبح بديلا عنه.

في هذا الصدد كتب هيدجر يقول: «بفعل الترجمة يجد عمل الفكر نفسه وقد تقمص روح لغة أخرى، وبذلك فهو يتعرض لتحول لا محيد عنه. إلا أن هذا التحول قد يغدو خصبا لأنه يبرز الطرح الأساسي للسؤال على ضوء نور جديد».²⁶ ليؤكد بذلك أن أزهى عصور الفكر لا بد وأن يقترن بازدهار حركة الترجمة. ذلك أن الترجمة ليست أبدا علامة على تبعية، إنها ليست قهرا للآخر ولا ارتقاء في أحضانه، وإنما هي تحول وتجدد وترحال وانفتاح وتلاقح وتكاثر وحياة. بهذا المعنى فإن المترجم مبدع مؤلف، والنص المترجم يحاكي عملية الإبداع التي تحاول انطلاقا من اللغة المألوفة، تلك التي نحيا فيها و بها، ونكون غارقين فيها، تحاول «أن تعطي الحياة للغة مغايرة يبدو ظاهريا أنها

اللغة ذاتها، ولكنها تشكل ما هو غائب عنها، مخالفا لها اختلافا لا ينفك يحصل ولا ينفك يختفي».²⁷ لا تهدف الترجمة إذن إلى المحاكاة «الأمينة»: «ذلك أن هاته المحاكاة تقضي على عمل الترجمة من حيث أنها تؤقلمها، وتنزع عنها امتياز الالتباس وعدم الاستقرار الذي يرقى بعدة مؤلفات مترجمة إلى مستوى المؤلفات الرائعة».²⁸

ذلك أننا غالبا ما لا نعتبر الترجمة ناجحة مرفقة إلا أن هي استطاعت أن تلغي الاختلاف الثقافي واللغوي، فتتقل النص من لغة أخرى من غير أن يبدو أنه انتقل. إننا لا نعتبر الترجمة ناجحة إلا إذا بدا النص وكأنه «نسخة طبق الأصل» إلا إذا بدا وكأنه لم يترجم، إلا إذا بدا وكأنه ينطق لغت «نا» ويفحص عن ذوات «نا» وينتمي إلى ثقافت «نا» إننا نتوخى أن تكون الترجمة من التماهي، بحيث تظهر أنها ما كان المؤلف سيكتبه لو أنه كتب باللغة المترجمة، ونطلب من المترجم أن يكتب النص باسم كاتبه، أن يكتبه من غير أن يوقعه، نطلب منه أن يحو اسمه ليسمح لكاتب النص الأصلي أن يتكلم لغة أخرى دون أن يفقد هويته.

إنها ترجمة تروم قهر المسافة بين المترجم والمؤلف، وإلغاء الاختلاف بين اللغة الأصلية واللغة المترجمة، بل إنها قد تتوخى أن يكون وقع النص المترجم على القارئ الجديد هو الوقع نفسه الذي كان على متلقي النص الأصلي.

هي إذن ترجمة تنفي ذاتها كترجمة وتسعى أن تقدم نصا «كأنه لم يترجم»، نصا يحو فعل الترجمة، نصا لا نشتم فيه رائحة اللغة الأخرى، رائحة «الأجنبي» رائحة الغرابة، رائحة الغيرية، رائحة الآخر، رائحة الاختلاف.

الترجمة، إذن، إبداع في لغة أخرى أو على الأصح إبداع في اللغة يحاول، انطلاقا من اللغة المألوفة، تلك التي نحيا فيها و بها، ونكون غارقين فيها، يحاول أن يعطي الحياة للغة مغايرة يبدو ظاهريا أنها اللغة ذاتها ولكنها تشكل «ما هو غائب عنها، مخالف لها اختلافا لا ينفك يحصل ولا ينفك يختفي».²⁹ ومن أجل ذلك فلا يكون عليها أن تطابق النص الأصلي وتستنسخه، وإنما أن تسمح له بأن ينقل من ثقافة لأخرى، وتمكنه من أن يبقى ويدوم، ولا معنى للنقل إن لم يكن انتقالا ولا للبقاء إن لم يكن تحولا وتجديدا، ولا للتجدد إن لم يكن نموا و تلاقحا وتكاثرا.

فالمقاومة الثقافية تنتج نسقا للتشويه يطال المستوى اللساني والأدبي ويخضع المترجم لشروطه، سواء أراد ذلك أم لم يرد. و سواء كان على وعي بذلك أم لم يكن. تبدو جدلية الأمانة والخيانة حاضرة لدى هذا المترجم حيث تبين عن غموض وضعيته ككاتب، ذلك أن المترجم القح هو الذي يحتاج إلى الكتابة انطلاقا من عمل ولغة وكاتب ينتميان إلى ثقافة أجنبية، وهذه الإحاطة جديرة بالاهتمام، إذ أن المترجم شخص متأرجح على المستوى النفسي، فهو يريد ممارسة عمله على واجهتين: واجهة إلزام لغته على اكتساب الغرابة، وواجهة إلزام اللغة الأخرى على الاغتراب داخل لغته الأم، فهو

مؤلف بمعنى من المعاني لكنه، ليس مؤلفاً حقيقياً، وعمل الترجمة لديه ليس عملاً حقيقياً كذلك، وهذه الشبكة من التأرجحات تنزع نحو تشويه الترجمة الخالصة والانضمام إلى النسق الإيديولوجي المشوه، وإلى تقويته إذ أن كل نص معروض للترجمة يمثل نسقية خاصة، تلاقيها حركة الترجمة وتواجهها وتكشف عنها، وبهذا المعنى أمكن القول بأن الترجمة هي نوع من النقد المتولد ذاتياً، وذلك بالقدر التي تكشف فيه عن البنيات الخفية للنص ونعتقد بأن نظام هذا العمل هو الذي يثير المقاومة ضد الترجمة ويسمح في الوقت نفسه بقيامها ومنحها معنى ما.

وللإشارة فإن غوته (GOETHE) كان قد توصل إلى نفس النتيجة، وبنوع من الحسد، حينما تحدث عن عملية «التجدد» ففي كثير من الأحيان «يتجدد» العمل المترجم، ليس فقط على المستوى الثقافي أو الاجتماعي، بل على مستوى منطوقه كذلك، ويتوافق هذا الأمر مع واقعة أخرى، وهي أن لغة الترجمة تساهم في انبعاث إمكانات مساوية وليست مشابهة للإمكانات التي فتحتها كمترجم.

وإقرار للحق يوجب القول بأن الحنين إلى اللغة الأصلية قد ساهم في بروز التأملات العميقة لـ والتر بنيهامين (WALTER BENJAMIN) صاحب مؤلف «مهمة المترجم»، حيث تنبئ اللغة الكاملة أو «اللغة الخالصة» وهذه تعابير الكاتب - كأفق تنبؤي لفعل الترجمة ويتم بشكل سري، ضمان التوافق بين اللغات الخاصة عندما تصل إلى قمة الإبداعية الشعرية. ولسوء الحظ فإن ممارسة الترجمة لا تتلقى أي عون من هذا الحنين الذي سينقلب إلى انتظار أخروي Eschatologique و لربما سيلزمننا نعي أمنية الكمال، كي نتحمل بدون نشوة وبكل بساطة «مسؤولية المترجم».³⁰ فالأمر يتعلق -وكما يشير إلى ذلك الفيلسوف بيكون (FRANCIS BACON)- باستبعاد عيوب اللغة وسيجسد ليبنتز (LEIBNIZ) هذه الضرورة بفكرته حول الخاصية الكونية التي تهدف على أقل تقدير إلى تأليف معجم كوني للأفكار البسيطة، تتم تكملته بمجموع قواعد تؤلف بين ذرات الفكر الحقيقية هاته.

تلك هي الحصيلة الموجزة للمعركة التي تتواجه فيها النزعة النسبية المرتكزة على العمل الميداني والقائلة باستحالة الترجمة، والنزعة الصورية المنبثقة من العمل المكتبي والتي فشلت في تأسيس واقعة الترجمة على بنية كونية مبرهن عليها. نعم، يجب علينا الاعتراف بهذه الحقيقة، وهي أن الوضع بين لغة وأخرى هو وضع التشتت والبلبل، ومع ذلك فإن الترجمة ترتسم ضمن الابتهاال الطويل الذي تردد فيه عبارة «رغم كل شيء». إذ أنه بالرغم من الاقتتال الأخوي، نناضل من أجل أخوة كونية، وبالرغم من تنافر اللغات المحلية يوجد مُزْدَوِجُ اللغة ومتعددو الألسنة، والتراجم/Interprètes والمترجمون/Traducteurs ما الذي كان ينتظره هؤلاء الشغوفون بالترجمة من رغبتهم تلك؟ لقد كانوا ينتظرون ما سماه أحدهم بتوسيع أفق لغتهم الخاصة، بل وما سماه الجميع بالتكوين (Bildung) أي التشكل والتهديب في الوقت نفسه وإذا ما صح التعبير، اكتشاف لغتهم في المقام الأول واكتشاف مواردها المنسية. يقول هولدرلين: «إن ما هو خاص يجب أن يعلم بنفس القدر الذي يعلم به ما هو أجنبي».³¹ لكن لماذا تؤدي هذه الرغبة في الترجمة، ثمن السقوط

في مازق، هو مازق الأمانة/الخيانة؟.

إن السبب في ذلك يرجع إلى غياب معيار مطلق للترجمة الجديدة، فلكي يتوفر مثل هذا المعيار، يجب علينا مقارنة نص الانطلاق ونص الوصول بنص ثالث، يكون حاملا لمعنى مماثل يفترض فيه التحرك ما بين النص الأول والثاني، بحيث يقال الشيء نفس هنا وهناك. فقد سبق لـ شلايرماخر (SCHLEIERMACHER) قبل ذلك أن وزع هذه المفارقة على العبارتين التاليتين «جلب القارئ نحو المؤلف» و«جلب المؤلف نحو القارئ».³²

فجلب القارئ نحو المؤلف أو العكس-علما بأن الأمر يتضمن مجازفة خدمة أو خيانة المعلمين معا -معناه ممارسة ما نسميه بـ«الضيافة اللسانية»، فهي التي تشكل النموذج بالنسبة للصيغ الأخرى المتشابهة معها: أو ليست الاعترافات والديانات هي بمثابة لغات غريبة بعضها عن البعض الآخر، بمعجمها ونحوها وبلاغتها وأسلوبيتها التي يجب تعلمها لكي نتمكن من فهمها؟ ألا تدعونا الضيافة القربانية إلى تحملها بنفس المخاطرة التي نتحمل بها الترجمة/الخيانة، وأيضا بنفس التخلي عن الترجمة الكاملة؟³³

«يرتبط الفهم بعملية الترجمة» ولا يتعلق الأمر فقط بمجرد استبطان للعلاقة بالغريب، ووفقا للمثال الأفلاطوني الذي يعتبر بأن الفكر هو حوار للروح مع نفسها، هذا الاستبطان الذي يجعل من الترجمة الداخلية مجرد إضافة للترجمة الخارجية. بل إن الأمر يتعلق باكتشاف أصيل، يبرز الأساليب المألوفة لدى لغة حية ما: فهذه الأساليب لا تسمح لأية لغة كونية بالتوصل إلى إعادة بناء التنوع اللغوي اللامتناهي. إن الأمر يتعلق أيضا بالاقتراب من أسرار اللغة الحية وتحليل ظاهرة سوء الفهم (Malentendu) واللافهم (Mécompréhension)، المؤدية حسب شلايرماخر إلى التأويل الذي تريد الهرمونيظيقا أن تجعل منه نظرية. فأسباب التباعد بين اللغة الكاملة واللغة الحية هي بالضبط نفس أسباب اللاتفاهم.³⁴

ولكن ما هي الوسائل التي نستخدمها عندما نتكلم أو نوجه الكلام إلى شخص آخر؟ إننا نستعمل ثلاثة أنواع من الوحدات هي الكلمات أي العلامات التي توجد بالمعجم، والعبارات التي لا تتوفر على معجم خاص بها (إذ لا أحد بإمكانه أن يحدد عدد العبارات التي قيلت أو ستقال في اللغة الفرنسية أو في أية لغة أخرى) وأخيرا النصوص وهي مقاطع من العبارات.³⁵

وفي كل مرة يحدد السياق كما يقال المعنى الذي أخذته الكلمة ضمن هاته المرحلة أو تلك من الخطاب، وانطلاقا من ذلك، فإن الجدالات حول الكلمات يمكن ألا تنتهي وهو ما تشهد به عبارة «ماذا تقصدون بكلامكم؟»، ويمكن للأشياء أن تتضح أو تزداد غموضا ضمن لعبة السؤال والجواب. إذ ليست هناك سياقات بارزة بل سياقات خفية وما ندعوه بالإشارات ليست جميعها ذهنية، بل وجدانية، وليست جميعها عمومية، بل خاصة بوسط وطبقة ومجموعة بل وحتى بحلقة سرية.

هكذا يوجد كل الهامش الذي تخفيه الرقابة والممنوعات، هامش اللامقول (Non dit) الذي تخترقه كل أوجه المستور.

وفي الأخير: هل يجب علينا ترجمة المعنى أم ترجمة الكلمات؟ إن كل هذه الارتباكات المتعلقة بالترجمة من لغة إلى أخرى تجد أصلها في تأمل اللغة الذاتي، وهو الأمر الذي دفع شتاينز إلى القول: أن نفهم معناه أن نترجم³⁶. ولقد طرح والتر بنيامين هذه المشكلة في إطار ما يوجد أمام الذات كمهمة، إنها مهمة المترجم وليست مهمة الترجمة فبنيامين لا يتحدث عن مهمة أو مشكلة الترجمة، بل يسمي ذات الترجمة كذات مستدينة مطالبة بواجب، في وضع من يرث، مسجلة ككائن باق ضمن جنيالوجيا ككائن باق أو كعامل للبقاء³⁷.

ومثل هذا البقاء يضيف شيئاً إلى الحياة أكثر من البقاء على قيد الحياة، فالعمل لا يحيا لمدة أطول فقط، بل يحيا أكثر وأحسن، متجاوزاً إمكانات مؤلفة. يتعلق الأمر في هذا السياق الضيق بالعلاقات بين لغة الأشياء ولغة الإنسان، بين الصامت والناطق، بين المجهول والمسمى ليس إلا...

1 HEIDEGGER, Martin. L'homme habite en poète. Essais et conférences, Gallimard, Paris , 1997, p228, p.224-245.

2 BARTHES, Roland. Leçon: leçon inaugurale de la chaire de sémiologie littéraire du Collège de France, prononcée le 7 janvier 1977. Seuil, 1989. P 12.

3 BENJAMIN, Walter et DE GANDILLAC, Maurice. La tâche du traducteur, Gallimard, Paris 2000. P 14.

4 BARTHES, Roland, leçon, op-cit, p16...

5 MICHEL, Renaud. Hans-Georg Gadamer, Vérité et méthode. Les grandes lignes d'une herméneutique philosophique. 1976. Revue théologique de Louvain, éditions seuil, 1996 P-P 406 -410.

6 Ibid.p 184.

7 مصطفى العريضة، الترجمة والهرمينوطيقا، مقال منشور في كتاب الترجمة في الآداب والعلوم الإنسانية (الواقع والأفاق)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1999 ص 74.

8 عمر كوش، أقلمة المفاهيم، (تحولات المفهوم في ارتحاله)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2002، ص112.

9 TAYLOR, Françoise. Roland BARTHES S/Z.collection points essais .Paris, Editions du Seuil , 1976 pp10.11.

10 GADAMER, Hans Georg, FRUCHON, Pierre, GRONDIN, Jean, et al. Vérité et méthode: les grandes lignes d'une herméneutique philosophique: édition intégrale revue et complétée par Pierre Fruchon, Jean Grondin et Gilbert Merlio. Seuil, 1996, P.410

11 Ibid. P -P. 498-499

12 Ibid. P.515

13 عبد الغني بارة، الهيرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقلي تأويلي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، لبنان بيروت، ط2008، 1، ص110

14 عبد الغني بارة، مرجع سبق ذكره، ص110

15 كما يقول عبد الفتاح كيليطو في تقديمه لكتاب عبد السلام بنعبد العالي، في الترجمة، التقديم معنون بـ«مناهات الترجمة» ص09

16 BENJAMIN, Walter et DE GANDILLAC, Maurice. La tâche du traducteur, leçon, op.cit., p250.

17 Ibid. P 249.

18 DERRIDA, Jacques. Positions, Paris, Minuit, 1972. L'oreille de l'autre, 1972, p. 20335-, p31.

19 HEIDEGGER, Martin et FRINGS, Manfred S. Heraklit. Vittorio Klostermann, 1983 .p456.

20 Ibid.

21 Ibid.

22 HEIDEGGER, Martin et FRINGS, Manfred S. Heraklit. Vittorio Klostermann, 1983 P 63, 64.

23 HAAR, Michel. Heidegger et l'essence de l'homme. Editions Jérôme Millon, 1990, P 182.

24 عبد السلام بنعبد العالي، في الترجمة، تر: كمال التومي، قدم له وراجع الترجمة: عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2006، ص42.

25 BERMAN, Antoine. L'épreuve de l'étranger. Paris: Gallimard, 1995, P 97.

26 DERRIDA, Jacques. Heidegger et la question. Flammarion, 1990. P10.

27 BIDENT, Christophe. Maurice Blanchot; « traduit de... » in la port du feu, Gallimard, Paris 2001 (nouvelle édition) ; P 174.

28 Ibid. PP 186-187.

29 Maurice Blanchot « traduit de... » in le port du feu, Gallimard, Paris 2001 (nouvelle édition) ; P 187

30 بول ريكور، الصبغة النموذجية للترجمة، مقال مترجم في كتاب جماعي: الترجمة والفلسفة السياسية والأخلاقية، تر: عز الدين الخطابي، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص33

31 بول ريكور، الصبغة النموذجية للترجمة، مرجع سبق ذكره، ص36

32 المرجع السابق، ص36.

- 33 - المرجع السابق، ص 37
- 34 المرجع السابق، ص 38
- 35 بول ريكور، الصبغة النموذجية للترجمة، مرجع سبق ذكره، ص 39
- 36 المرجع السابق، ص 40
- 37 المرجع نفسه، ص 56